الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

صرخة في وجه الظّلم: ينام الظّالم وعين الله لا تنام

العدالة الضّائعة: حين يصبح الظّلم المبين لغة للعصر

زاحم ساحات الجهل والباطل، يرجى نشر ما تقرأ من علم وحق، ولا تصمت صوتك في الحق

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA LONDON - UK

AMIEE
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في قلب الليل، حين يخيم السّكون على العالم، تتردّد في أذهان المظلومين أسئلة حارقة:

كيف ينام الظالم مطمئناً وهو يعلم أنّه قد ظلم غيره؟

كيف يضع رأسه على الوسادة وهو يعلم أنّ عدالة اللّٰه لا تنام ويتحدّاها؟

كيف يستطيع أنْ يتناول طعامه بهناء وهو يعلم أنّ لقمته مغمّسة بدموع المظلومين؟

هذه ليست مجرّد كلمات تُكتب، بل صرخة ألم من قلوب تنزف، ونداء عدالة من أرواح تتطلّع إلى السماء بحثاً عن الإنصاف الذي ضاع في دهاليز الأرض، وفي استباحة الأفراد بعضهم بعضاً، وظلمهم لغيرهم ظلماً وبهتاناً، دون الالتفات إلى أنّ هذا الظّلم سيطال المجتمع بأكمله لا أفراداً بعينهم، فالظّلم سيولّد اليأس، واليأس سيولّد اللامبالاة، واللامبالاة ستفتح الباب للمزيد من الفساد، والفساد سيعمّق الظلم، فليس الأمر مجرّد مشاكل إدارية أو قانونيّة، بل أزمة في المنظومة القيميّة للمجتمع، فعندما تنهار القيم الأساسية كالعدل والصدق والكرامة الإنسانية، فإنّ المجتمع بذلك سيفقد بوصلته الأخلاقيّة، فالظلم وأكل الأموال بالباطل ليس فقط جريمة بحقّ الإنسان، بل هو تحدٍّ صارخ لأمر اللّٰه ونهيه، وهنا يقول اللّٰه تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[سورة البقرة: 188]

فليس هناك أقسى من الظلم الذي يُمارس جهاراً نهاراً، دون أدنى خجل ولا حياء ولا خوف من اللّٰه، فعندما يصبح الظلم "مبيناً" كرؤى العين، فإنّ هذا يعني أنّ المجتمع قد وصل لدرجة من الانحطاط الأخلاقيّ تجعل الظالم لا يكتفي بظلمه، بل يتباهى به، وهذا يعني أيضاً أنّ التطبيع مع الظلم أصبح أمراً عادياً، فالظّلم قد غدا مرئياً وواضحاً للجميع، والمجتمع بات يتعايش معه كأنّه قدر محتوم.

فأين العدالة؟

سؤال يتردّد في قلوب الملايين، وعدالة ضُربت بعرض الحائط، ويْ كأنّها مجرد شعارات جوفاء على أبواب المحاكم، وعدالة تحوّلت إلى سلعة تُباع وتُشترى في أسواق النفوذ والرشوة...

فعندما تضيّع الحقوق وتشوّه الحقائق أمام من يُفترض أنْ يحميها، وعندما تطمس الوقائع بتهميش وسطحيّة وإهمال في التحقيق، وعندما تتباطؤ وتيرة السعي الحثيث لتحقيق العدالة ، وتقصر الضمائر عن ردّ الأمانات وأدائها، وعندما تغيب القدرات والإمكانيّات والخبرات والمؤهّلات التي لها اليد الطولى في ردّ المظالم لأصحابها، وعندما تصبح الكراسي منابر للفساد بدلاً من العدل، وعندما يصبح الصّدق غريباً والكذب مألوفاً، هنا نعلم أنّ الأمة قد دخلت في نفق مظلم من الانحدار الحضاري، وهنا تتحقّق نبوءة الرّسول ﷺ عندما قال: "سيأتي على النّاس سنواتٌ خدّاعات، يُصدَّق فيها الكاذب، ويُكذَّب فيها الصّادق، ويُؤتَمن فيها الخائن، ويُخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرُّوَيْبِضَة" (صحيح الجامع، 3650)

وها قد وصلت هذه السنوات يا رسول اللّٰه، وها نحن نحياها، ونرى فيها قلب الموازين، ونردّد من هول ما نرى من فساد: "ماتت المهنيّة وغاب الضمير ، فأين مخافة اللّٰه؟"

فهذه العبارة تلخّص مأساة عصرنا، فقد مات في قلوب كثيرين ذلك الصّوت الداخليّ الذي كان يقول "لا" للحرام، و"لا" للظلم، و"لا" لأكل حقّ الآخرين، فعندما يموت الضمير، تصبح القلوب مقابر للقيم، وعندما تغيب مخافة اللّٰه، يصبح الإنسان وحشاً كاسراً لا يرحم، فتجد المحامي الذي يخون موكّله، وآخر يتلاعب بالنصوص والمستندات، والموظف الذي يطوي الملفات، والقاضي الذي يُطيل أمد القضية حتى ييأس صاحبها، وغيره الذي يبيع حكمه، وكلاهما قد تناسى قول الرسول الكريم ﷺ : "القضاة ثلاثة: قاضيان في النّار، وقاضٍ في الجنّة، رجل قضى بغير الحقّ فعلِمَ ذاك فذاكَ في النّار، وقاضٍ لا يعلم فأهلك حقوق النّاس فهو في النّار، وقاضٍ قضى بالحقّ فذلك في الجنّة"(رواه الترمذي)، والطبيب الذي يهمل مريضه، والموظف الذي يسرق المال العام، والصديق الذي يخون الأمانة وصولاً للتّجنّي الظالم، فكلّهم حلقة في سلسلة الخيانة، وكلّهم سيعيشون أمواتاً قبل أنْ يموتوا، وكلّهم فقدوا إنسانيّتهم في طريق السعي وراء المنافع الدنيويّة...

ARAB-PSF.COM

ولكنّ السّؤال المحرق للرّوح : كيف يرتاح الظالم؟

وكيف يستطيع أنْ ينام مطمئناً وهو يعلم أنّ فوقه رباً لا تأخذه سنة ولا نوم؟ وكيف يهنأ بطعامه وشرابه وهو يعلم أنّ كلّ لقمة من الحرام ستكون جمراً في بطنه يوم القيامة؟

وهنا تظهر عبارة ودعوة "حسبي اللّٰه ونعم الوكيل"، لا من منطلق ضعف، بل قوّة منبعها التّوكلّ الحقّ على اللّٰه، واليقين العميق أنّ اللّٰه معنا ، وأنّ من كان اللّٰه معه فلا أحد عليه...

وحسبي اللّٰه ونعم الوكيل يأساً من عدالة البشر، ورفعاً للقضية إلى عدالة السّماء، وتوكيل للّٰه لأخذ الحقّ، بعد أنْ انتشر الفساد وبيعت الضمائر....

وحسبي اللّٰه ونعم الوكيل، ملاذاً قوياً وتأكيداً على وعود اللّٰه تعالى بأنّه لا يضيع أجر من أحسن عملاً...

وحسبي اللّٰه ونعم الوكيل، ثقةً بأنّ للظالم ساعة، ولو بعد حين...

وحسبي اللّٰه ونعم الوكيل، يقيناً بأنّ العاقبة للتّقوى، ويقيناً بأنّ للصّبر أجره عند اللّٰه، ولكنّه صبر مع المطالبة المشروعة بالحقّ، صبر مع الإيمان العميق بأنّ اللّٰه مع الصّابرين ...

وحسبي اللّٰه ونعم الوكيل إعلانَ إيمانٍ قاطعٍ بأنّ هناك عدالة أعظم وأشمل من عدالة الأرض، عدالة لا تحتاج لمستندات ولا شهود، لأنّ اللّٰه يرى ويسمع ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور....

فالمظلوم يكفيه أنْ يعلم هذه الحقيقة الراسخة: عدالة اللّٰه آتية لا محالة، مهما طال الزمن....

وإنْ نُسيت العدالة ها هنا، فعند اللّٰه لا يضيع حقّ...فكيف إذن يرتاح الظالم؟ كيف ينام قرير العين وهو يعلم أنّ كلّ ظلم سيُحاسب عليه، وكلّ دمعة ظلم ستكون شاهدة عليه، وكلّ حقّ أكله سيُطالب به يوم لا ينفع مال ولا بنون..

فكيف تغافل عن حقيقة كونه لن يرتاح أبداً؟

فحتّى لو بدا على وجهه الرضا، فقلبه يعيش في قلق دائم، لأنّ خوفه من الانكشاف سيرافقه دوماً، ففي كلّ رنّة هاتف قد يكون هناك خبر فضيحته، ومع كلّ طرقة باب قد تكون بداية نهايته، وسيفقد ثقته في الآخرين، لظنّه أنّ الآخرين مثله سيخونون العهود والمواثيق والأمانات، فهو سيعيش في شكّ دائم حتّى بأقرب الناس إليه، وسيكون ضميره الميّت يقظته التي ترافقه في أشدّ اللحظات قسوة، من خوف أو مرض أو موت، وسيذكّره بكلّ من ظلمهم، وستطارده وجوه المظلومين، فتؤرّقه صرخاتهم، وتحرقه دعواتهم عليه، وفي أعماقه سيعلم أنّ هناك حساباً وعقاباً، فمهما تظاهر بالإنكار وعدم الاكتراث، ففي أعماقه يكمن خوف عميق من يوم الحساب...

وفي المقابل، فإنّ المظلوم الذي يؤمن بعدالة اللّٰه يحمل في قلبه قوّة خفيّة هائلة يستمدّها من الرّضا بقضاء اللّٰه، فيعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويقينه في العدالة الإلهيّة وإيمانه أنّ اللّٰه لن يضيّع حقّ مظلوم ولن يترك ظالماً بلا عقاب، وسيتسلّح بالدّعاء في ظهر الغيب، ومناجاة اللّٰه في الأسحار ليقينه بأنّ دعوة المظلوم ليس بينها وبين اللّٰه حجاب، وسينتظر فرج اللّٰه بلا يأس، ويعلم أنّ مع العسر يسراً، فسيصبر ويحتسب أجر صبره عند اللّٰه...

وإنّ كان هناك ما يسلي قلب المظلوم ويمنحه الصّبر، ففي الشواهد التي امتلأ بها التّاريخ خير دليل على عدالة اللّٰه التي تتحقّق مهما طال الزمن، فالطغاة الذين بدوا أقوياء انتهوا أذلاّء مطرودين، والظالمون الذين جمعوا الثروات الطائلة فارقوا الدنيا ولم يأخذوا معهم شيئاً، والمفسدون الذين ظهروا بلا محاسب أو معاقب، كُشفت فضائحهم وسقطوا صاغرين، فاللّٰه يُمهل ولا يُهمل، وقد تتأخّر العقوبة لحكمة يعلمها اللّٰه، لكنّها آتية حتماً، فلا رادّ لقضاء اللّٰه وحكمه وعدله....

فيا أيّها الظالم، توقّف قبل فوات الأوان، فالعدالة الإلهيّة لا تغفل عنك طرفة عين، وكلّ ظلم تمارسه يُسجّل عليك، وكلّ حقّ تنهبه سيُطالب منك، تُب إلى اللّٰه وردّ الحقوق لأهلها قبل أنْ تقف بين يدي اللّٰه، وأنت خال الوفاض، لا تملك قيد أنملة من حسنة، ولا مثقال ذرّة من طاعة، وتذكّر بأنّ اللّٰه يغفر كلّ الذّنوب إلاّ ذنوب الإنسان تجاه أخيه الإنسان في ظلمه له وإساءته...فكيف تنام واللّٰه يراك؟ وكيف ترتاح ودعوات المظلومين تصعد إلى السماء؟

ويا أيّها المظلوم، اصبر ولا تيأس، فعدالة اللّٰه آتية لا محالة، وما أُخذ منك بالظلم سيُرَدّ إليك بالعدل، إنْ لم يكن في الدنيا ففي الآخرة، فادع وألحّ في الدّعاء، فدعوة المظلوم مجابة، وهي سلاح أمضى من كلّ أسلحة الظالمين، وكن على يقين بأنّ ردّ الظلم لا يكون بالانتقام الشخصيّ، بل بالصبر، والحكمة، والسعي لتحقيق العدل ضمن الإطار الشرعيّ، مع العفو والإحسان وهذا ما نتعلّمه من المدرسه المحمديّة حينما تعرّض النبيّ ﷺ للظّلم، فقد كانت سيرته العطرة تمثّل أعلى درجات الصبر والحكمة والعفو، مع الحرص على إقامة الحق والعدل... فاستمسك بإيمانك فهو عزاؤك الوحيد في عالم ظالم، وهو مصدر قوتك في مواجهة الطغاة.. فكما قال اللّٰه تعالى: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ (الشعراء: 227)...

فهنا حقيقة واحدة راسخة لا محيد عنها، اللّٰه موجود، واللّٰه عادل، واللّٰه لا يظلم أحداً...

فمهما بدا الظالم قوياً، ومهما بدا المظلوم ضعيفاً، فإنّ عدالة اللّٰه ستقلب الموازين، يوم يقف الجميع بين يدي اللّٰه، لا ينفع نسب ولا حسب، لا مال ولا جاه، لا منصب ولا سلطة، فيومها فقط سيعرف الظالم كم كان أحمقاً حين اختار دقائق من المتعة الزائفة مقابل عذاب أبديّ...ويومها فقط سيعرف المظلوم قيمة صبره، وسيرى كيف أنّ اللّٰه ادّخر له عدلاً أعظم ممّا تخيّل..

فإنْ كانت العدالة الأرضية تَخذل، وتتحوّل إلى سراب، فالعدالة الإلهيّة مصدر قوّة لا ينضب للقلب المكلوم، فهي تذكّرنا بأنّ النهاية ليست للقوي دائماً، وأنّ الحقّ سيعود إلى أصحابه، ولو بعد حين، فعدالة اللّٰه ليست مجرّد أمل نتعلّق به، ونواسي أنفسنا به، بل حقيقة مطلقة ستتحقّق حتماً، فلنصبر، ولنؤمن، ولننتظر... فاللّٰه لا يُخلف الميعاد، ووقتها.. ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[الشعراء: 227]